مجلة فصل الخطاب Journal of Faslo el-khitab
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 11، عدد رقم: 02، جوان 2022، صص: 409 – 420

تاريخ الاستلام(2021/12/21)تاريخ القبول (2022/06/06)تاريخ النشر (2022/06/30)

رمزية الأنثى ودلالتها في رواية التبر لإبراهيم الكوني

Female Symbolism and its Significance in Ibrahim Al-Koni's novel Al-Tabar

لخضر بلقاق
جامعة الجلفة (الجزائر)، Lakhdar.Belkague@yahoo.fr

ملخص:

يعدّ إبراهيم الكوني ممن ساروا في نهج الكتابة الروائية الجديدة، فخرج عن المألوف و اقتحم عالم العجائب من السحر والجن، هذا العالم الغريب العجيب الذي كانت العرب في جاهليتها تأنس إليه، وتتخذ منه ملجأ للهروب من عالمها الحسي، وبحثا عن اللذة، ولقد أبان عن مقدرة كبيرة في الجمع بين المتباعد والمتنافر بين البسيط والمركب، بعيدا عن الإيقاع المألوف وفي نسيج روائي ذي طبيعة خاصة يستطيع أن يؤلف بين العناصر المختلفة والخاصية الحوارية التي تجمع بين الأضداد في آن واحد كالفرح والحزن والعشق والكراهية بأسلوب شيق ومقدرة خارقة على التحكم في اللغة وتطويع ألفاظها بأسلوب من التشويق الذي يشد انتباه القارئ فيجعله يطوي صفحات الرواية طيا، لا غاية له سوى كشف القادم من الأحداث ، وسنحاول في مقالنا هذا التغلغل في عالم الكوني العجيب، من خلال دراسة دلالة الأنثى ورمزيتها في رواية التبر لإبراهيم الكوني.

كلمات مفتاحية: الأنثى، الدلالة، الرمزية، رواية التبر، إبراهيم الكوني

Summary:

Ibrahim Al-Koni is considered among those who followed the approach of the new fiction writing, so he departed from the norm and stormed the world of wonders of magic and jinn. This strange and wondrous world that the Arabs in their era of ignorance were acquainted with, took it as a refuge escaping from its sensory world seeking for pleasure. He demonstrated a great ability in combining the divergent and dissonant

المؤلف المرسل: لخضر بلقاق ، الايميل: Lakhdar.Belkague@yahoo.fr

between the simple and the complex, away from the usual rhythm and in a narrative fabric of a special nature. Additionally, he had an uncanny knack for tying together disparate emotions like joy, sadness, love, and hate in an intriguing way, as well as an uncanny ability to manipulate language and adapt its words in such a way that they kept the reader riveted to the pages of the book, eager to find out what would happen next. We'll give it a shot as part of our investigation into the odd cosmos.

Keywords: The female, the symbolism, the signification, the narration of Al-Tabar, Ibrahim Al-Koni.

1. مقدمة:

اتسمت الكتابة الروائية في الفترة الحديثة باقتحام عوالم جديدة لم تعرفها من قبل، من خلال تجاوز المألوف وتحقيق ثراء فني متميز من خلال الانفتاح على التجديد، وتبني تجربة سردية إبداعية تخطت بها التقليد أسفرت عن ميلاد نمط جديد من الكتابة كسرت به القيود، وتخطت به الحدود من خلال تجريب ميكانيزمات وتقنيات مستحدثة تتمرد بها اللغة على القوالب الجاهزة إلى تشكيلات تعبيرية غير مألوفة، لإنتاج نصوص ذات معمارية قائمة على الإثارة والغرابة، مفتوحة على السيولة الدلالية يغلب عليها التلميح أكثر من التصريح والغموض أكثر من الوضوح، والخيال أكثر من الواقع، والعجيب أكثر من المعقول.

وكان إبراهيم الكوني ممن ساروا في هذا النهج من الكتابة الروائية الجديدة، فخرج عن المألوف واقتحم عالم العجائب من السحر والجن، هذا العالم الغريب العجيب الذي كانت العرب في جاهليتها تأنس إليه، وتتخذ منه ملجأ للهروب من عالمها الحسي، أو بحثا عن اللذة كما يرى أرسطو " إنّ العجيبات إنما تكن من البعيدات وما يحدث العجب يحدث اللذة"[1]،

أ- مستوى الشخصيات:

المتبع لسير الأحداث في رواية « التبر » تشدّه شخصيتين صنعتا الحدث هما «أوخيّد» كإنسان يعيش في الصحراء تربطه علاقة خاصة ونادرة تجاه حيوان يدعى «الأبلق» ، بدأت هذه العلاقة منذ أن تلقاه هدية من طرف زعيم آهجار وهو مهري صغير[2]، فلطالما تفاخر به بين أقرانه « هل سبق لأحد أن شاهد مهريا أبلق؟....هل سبق لأحدكم أن رأى مهريا في رشاقته وخفته وتناسق قوامه؟ هل سبق لأحد أن رأى مهريا ينافسه في الكبرياء والشجاعة والوفاء؟...هل سبق لأحد أن رأى غزالا في صورة مهري؟ لا...هل رأيتم أجمل وأنبل؟. لا لا. لا اعترفوا أنكم لم تروه ولن تروه»[3]، هكذا كان يتفاخر دائما، بل أنه لم يعتبره دابة، عندما وبّخه والده عندما قدم له الشعير، « كان يسرق الشعير من الخباء ويطرحه في راحتي يديه ويقدمه له ...وبّخه أبوه قائلا : حتى الناس محرومة من الشعير وأنت تعطيه للدابة.أجاب يوما: الأبلق ليس دابة ، الأبلق هو الأبلق ، المهري الصغير

يتجول معه بين المضارب، ويقتفي أثره كالكلب يهرول وراءه حتى عندما يذهب للسهر...ولا ينام إلاّ عندما يهجع للنوم ...يرافقه حتى عندما يسرح في الخلاء ... " الشيخ موسى" يقول : الحيوان خير صديق»[4].

لم تكن هذه العلاقة الوطيدة بين أوخيّد والأبلق اعتباطية، فأوخيّد ابن زعيم القبيلة وحرّي به أن يكون فارسا مكتمل الفروسية، ولا يتأتّى له ذلك إلاّ بامتلاك الأبلق ذو السلالة النادرة يمتلك صفات تتباهى بها القبائل، أما أوخيّد فقد كان يتيم الأم، ليس له إخوة أشقاء، ولم يحظ بالكثير من رعاية والده فقد اهتمت به عجوز كلفها والده بذلك. فترك كل ذلك فراغا كبيرا لديه لا يعوضه سوى علاقة وطيدة مثل علاقته بالأبلق كما ذكر الشيخ موسى «الحيوان خير صديق»[5]، وتعلق الإنسان بالحيوان عامة وبالإبل خاصة وهو ما يميز التوارق عموما، تعلقا جعل بطل الرواية يرتبط بعلاقة خاصة استثنائية تدفع الشخص بالتضحية بالإنسان إذا ما اضطر الاختيار بين الاثنين، وهو فعلا كما حدث بالنسبة لأوخيّد عندما تنازل عن زوجته وابنه مقابل استعادة أبلقه الذي رهنه لقريب زوجته فقام بتطليقها ليتزوجها قريبها.

وتجسد المرأة الشخصية الرئيسة الأخرى في رواية التبر ممثلة عند أوخيّد بزوجته " آيور" والعلاقة بالمرأة تمثل الثيمة الأخرى المهيمنة على غرار علاقة أوخيّد مع الأبلق ، يلاحظ القارئ لرواية التبر لإبراهيم الكوني غموض العلاقة بين الكوني والمرأة، فهي علاقة مبهمة تتشابك فيها المشاعر وتتداخل بشكل محير ومعقّد، فصورة هذه العلاقة المتداخلة المنسوجة بدهاء ومهارة استطاع الروائي أن يجمع بين ثنائية ضدية لعاطفتين لا يمكن أن تجمع في آن واحد لمشاعر كراهية شديدة للمرأة لكن هذه المشاعر تخفي الكثير من الحنين والتوق للمرأة وحضورها وتواجدها، فاستطاع الروائي المزج بين الأضداد لتنصهر في تماهي عجيب في صدر إنسان واحد، لا نكاد التماس الخيوط الدقيقة الفاصلة بين الأشياء ونقائضها، بين الحب الذي يصل إلى حد العشق، وبين الكره الذي يربو لحد العدوانية الفاجعة التي تفاجئ القارئ لهذا التحول من النقيض إلى النقيض، من كره وحقد وعداوة إلى عشق شديد ووله وحاجة ماسة لوجود المرأة ذلك الكائن الذي يصوره الكوني ناعما كالحية عندما تلمسه ولكنه لا يلبث أن ينفخ في وجهك بشرره ويلدغك بسمومه ويرديك بترياقه فيحول حياتك إلى جحيم أبدي لا نهاية له وإلى ظلمة قاتمة لا شمس تبدد سوادها،«فهمت .تريد أن تقول إن الأنثى أجمل ...جميلة حقا. ناعمة حقا.كالأفعى.ولكنها تلدغ كالأفعى أيضا... »[6]، والتطرف في الكراهية يخفي دائما ولها شديدا وولعا آسرا ، فيتحول هذا العشق إلى أحد أشكال العدوانية نحو المرأة ليعلّق عليها جميع أخطائه، بل كل ما يواجهه من مصائب « اعترف أن لا فضل لك في العدو هذه المرة! الأنثى هي السبب! هي السبب دائما!»[7].

وقد كرر توبيخه لحيوانه الأبلق بسبب انجراره نحو نزواته وأنها هي يقصد الأنثى ما كلفته فقدان وبره الجميل الذي طالما افتخر به « الأنثى نفسها التي كانت سببا في بلاء الأبلق...»[8]، موضحا ذلك في موضع آخر « فكلفته الفحولة العمياء داء الجرب»[9]. ليذكره مرة أخرى بقول الشيخ موسى أن الأنثى هي أكبر مصيدة للرجل رغم أن الرواية التي ذكرها غير صحيحة «ألم تسمع كلام الشيخ موسى؟ الأنثى أكبر مصيدة للذكر، سيدنا آدم أغوته امرأته فلعنه الله وطرده من الجنة ولولا تلك المرأة الجهنمية لمكثنا هناك ننعم بالنعيم ونسرح في الفردوس.... هي أيضا أفعى، ناعمة ولكنها تلدغ...»[10]، يتواصل حقد أوخيّد نحو الأنثى لاعنا لها وواصفا إياها بالقسوة بل مشبها لها بالشيطان الرجيم « لو رأته أنثاه بهذه الحال لأنكرته إلى الأبد، تفعل فعلتها ثم تنكر وتقول لا أنت مني ولا أنا منك. كما يفعل الشيطان الرجيم تماما. لعنهما الله معا : الشيطان والإناث. بل من هي الأنثى إن لم تكن شيطانا رجيما؟ »[11]، ولا يكاد يمر وقت قصير من السرد إلّا ويكرر أوخيّد هجومه اللاذع نحو المرأة بأقسى التعابير وأشدها وقعا وهو يحاول تعريفه لهذا الكائن قائلا لأبلقه: «ومن هي المرأة؟ إنها الوهق الذي خلقه إبليس كي يجر الرجال من رقابهم»[12].

والمدهش حقا أنّ يحمل إنسان مشاعر الحقد والكراهية والاحتقار بجانب مشاعر الشوق والوله والجاذبية نحو المرأة في آن واحد، إذ بأوخيّد يتغنى بهذه المشاعر ويصرح بها « الجاذبية .الجاذبية . آه من جاذبية الأنثى. إنها ذلك الجانب الخفي من المرأة....»[13]،وليس بيده سوى أن يقع صريعا بهذه الجاذبية « إلا أن الحسناء لم تنقصها النضارة ولم يفقدها طول الطريق البهاء. وإلى جانب جمالها تمتعت بروح مرح وجاذبية. هذه الجاذبية هي التي صرعت أوخيّد في أول لقاء...»[14]، و لا يعيب حسبه الوله والعشق للمرأة من الفارس « لا يعيب الرجل النبيل أن يعشق أو يهاجر للقاء..»[15].

ولقد دفع ارتباط أوخيّد بحيوانه الأبلق وغلبة مشاعر الكراهية والحقد والاحتقار على مشاعر الجاذبية والشوق والحنين نحو المرأة، بأوخيّد إلى التضحية بزوجته مقابل استعادة أبلقه رغم أن الكوني لم يصرح بكل الدوافع التي جعلت من البطل يتخذ ذلك الموقف الذي سيندم عليه لاحقا بعدما شاع في القبائل أنه باع زوجته وابنه مقابل حفنة من تبر، رغم أنه رفضها غير أن قريب زوجته أصر عليه بأخذها، هذا الذي يدفعه في الأخير لقتله لمحو العار الذي نال منه.

والملفت للانتباه في رواية التبر لإبراهيم الكوني هو تلك القدرة الخارقة في الجمع بين مشاعر العشق والوله من جهة ومشاعر الكراهية والحقد من جهة ثانية تجاه الأنثى التي ترمز أحيانا للجمال والجاذبية وفي أحيان أخرى تمثل المرأة الجهنمية ، الأفعى، كما يظهر في الجدول التالي:

الأنثى الجميلة الجذابة...	ص	الأنثى الجهنمية ، الأفعى...	ص
لم يمض وقت قصير على تمتماته في أذن الفتاة..	14	اعترف أن لا فضل لك في العدو هذه المرة ! الأنثى هي السبب! هي السبب دائما!	13
لا يعيب الرجل النبيل أن يعشق أو يهاجر للقاء..	15	فكلفته الفحولة العمياء داء الجرب	19
إلا أن الحسناء لم تنقصها النضارة ولم يفقدها طول الطريق البهاء. وإلى جانب جمالها تمتعت بروح مرح وجاذبية. هذه الجاذبية هي التي صرعت أوخيّد في أول لقاء	67	ألم تسمع كلام الشيخ موسى؟ الأنثى أكبر مصيدة للذكر، سيدنا آدم أغوته امرأته فلعنه الله وطرده من الجنة، ولولا تلك المرأة الجهنمية لمكثنا هناك ننعم بالنعيم ونسرح في الفردوس.... هي أيضا أفعى، ناعمة ولكنها تلدغ...	22
الجاذبية .الجاذبية . آه من جاذبية الأنثى. إنها ذلك الجانب الخفي من المرأة....	67	ثم يعض شفته ويردد: « لعن الله الأنثى! لعن الله الأنثى!»	26
الجاذبية هي الجمال الخفي الذي خلق كي يصرع أمثاله من الرجال.	68	لو رأته أنثاه بهذه الحال لأنكرته إلى الأبد، تفعل فعلتها ثم تنكر وتقول لا أنت مني ولا أنا منك. كما يفعل الشيطان الرجيم تماما. لعنهما الله معا : الشيطان والإناث. بل من هي الأنثى إن لم تكن شيطانا رجيما؟	46
تابع خيال قامتها الهيفاء وهي تنتقل بين النساء ثم سمعها تغني يا ربي....كل ما عجزت جاذبيتها عن التصريح به عبر صوتها الإلهي عنه.	68	فهمت .تريد أن تقول إن الأنثى أجمل ...جميلة حقا. ناعمة حقا.كالأفعى.ولكنها تلدغ كالأفعى أيضا...	58
حتى وقع في الوجد وجذب مع الشباب حتى الصباح.	68	الأنثى نفسها التي كانت سببا في بلاء الأبلق...	72
التقى با بعدا مرارا، في ليالي السهر وفي المراعي. أسمعته الأغاني الربانية في الخلاء....	68	كان قادرا على أن يحقد على النساء لأنه يستطيع أن يرى بعينيه لا بقلبه كما في الماضي...أيقن أن القرب في الحب ومقبرة له	78
أحرقته الآن أغاني الفتاة بالشوق والحنين والشجن. بكى في قلبه، وحاور الفتاة كثيرا....	68	الأنثى التي جلبت البلاء للأبلق هي التي دفعته لأن يعد ويخلف، يحلف ويحنث، لم يخلف وعدا في حياته، وها هو يسهو ويفعلها...	78
لم يكن عشق النساء في تلك الأيام رذيلة تطعن في رجولة الرجل، بل إن الوله بالمرأة من ميزة الفرسان والنبلاء...	69	أي امرأة تجرؤ أن تأكل لحم حيوان طويل القامة ممشوق القوام مثل الأبلق لولا أنها غولة نهمة تقتات باللحم الآدمي؟	83

ارتمى في أحضان الجاذبية فلن يبحث عن إرث الزعامة من جرّب الخلوة مع حوريات الفردوس ...اختار الأنثى.	72	..ما أقسى المرأة!يا ربي أين الجاذبية ؟ أين الشعر؟ أين الشرر....	84
		امرأة وحشية... لم يجد لنفسه مكانا من الغلّ. غل على المرأة...ومن تقريع الوالد إلى كراهية الزوجة.	86
		المرأة.المراة.ألم يقل الشيخ موسى أنها هي التي طردت آدم من الجنة	95
		..ماذا يسمى هذا غير الخيانة؟ كيف أعمته المرأة إلى هذا الحد الذي أعماه عن رؤية عمله البشع؟نعم .هي.المرأة ...	99
		ومن هي المرأة؟ إنها الوهق الذي خلقه إبليس كي يجر الرجال من رقابهم	112
		نظرة اليوم إنذار ..تحذير..تحدّ..كراهية.نعم. في الاحتقار برقت الكراهية.وماذا يمكن أن تعني الكراهية إلى جانب الاحتقار؟ في الاحتقار كل الرذائل.الاحتقار أقسى من الكراهية ؟ الاحتقار إهانة ...	119

شخصية أخرى كان لها وقعها في دفع الأحداث نحو الغرابة والعجب لم يذكر الكوني اسمه بل لقبه "بشيخ القبيلة " التي تعودت أن تقضي الربيع في " وادي المغرغر"، « عجوز نحيل طويل القامة، في وجنتيه تنثني غضون عميقة ولكن في نظرته تلوح عفوية وعافية ومرح مجهول»[16] ، هذه الشخصية خيبت القارئ في ردة فعلها ، فالحدث مخز، وفيه انتهاك للمحرمات، وتعد على الأعراف، فعوقب الحيوان بدل الإنسان، أو ربما عوقب الإنسان بصاحبه، فما كان من المعهود أن يحدث في السر ينتهك علنا في وضح النهار وعلى مسمع ومرأى الجميع حتى الصبية والنساء، في مشهد صادم ومخز وشيخ القبيلة يردد : «إذا أفلت الفارس فلا يجب أن يفلت الأبلق »[17] . ولعل الكوني تعمد عدم ذكر اسم شيخ القبيلة واسم القبيلة كذلك وجعلهما نكرة، فقد كانت العقوبة من نكرة وقد تحملها الحيوان حين استأثرت به نوق القبيلة ، ففي أعرافهم ما يذهب قوة الفحول إلاّ استئثار الإناث به تقطعت حبال الاتصال من جديد وحل محلها الافتقار بوجود رغبة أخرى واتصال من نوع آخر، فصودرت رغبة أوخيّد في أن يصير فارسا بسبب ما اقترفه من ذنب، ورغبة الأبلق كلفته داء الجرب.

إن " الشيخ موسى" شخصية حاضرة دائما مع أوخيّد في حلمه ويقظته، وفي حلّه وارتحاله، الشخصية الدينية الحكيمة، لا أولاد له ولا زوجة وأقارب، غريب عن القبيلة، جاء من غرب

الصحراء، « من فاس بلاد الفقهاء وعلماء الشريعة»[18]، هو غريب ولغته فيها عدول عن المألوف، وكان الواعظ الناصح لأوخيّد، لطالما ردد حكمه ومواعظه لاسيما لحظات اللوم والعتاب، إلاّ أنه يأخذ برأيه أحيانا فقد عمل بنصيحته عندما همس في أذنه " الكلام بيننا ولكن شفاء جملك في آسيار" فعلى الرغم من أنّ السر أرعبه، " هل سيجن الأبلق؟" إلا أن الأمل موجود لكنه محفوف بالمخاطر، ونتائجه غير مضمونة ، هو أمل مقلق حقا يتطلب قلبا من حديد، فعالم الجن عالم غريب لا يمكن مجاراته ولقد استوقف أوخيّد في حوار النفس حين وصل إلى " قرعات ميمون" وربط الأبلق في الحقل « العجائز تؤكد أن الجن ليس كالإنس...الجن يلتزم بقوانين اللعبة، المهم أن تعرف ما أنت مقدم عليه»[19]، الجن هو الشخصية الأخرى من الشخصيات لكنها غير مرئية تخلق الغرابة وتقبض الأنفاس لما تتمتع به من خوارق، وهناك شخصيات أخرى على غرار العراف وقريب زوجته لم يكن لها دورا بارزا في مجريات الرواية.

ب-مستوى الحدث:

أثناء قراءة رواية التبر للكوني تستوقفنا محطات عديدة يمر بها بطل الرواية، كل محطة منها تمثل حدثا بذاته، تتغير فيها المعطيات التي تشكل المشاهد التي يصورها الراوي في أثناء رحلته في الرواية إلاّ أنها مرتبطة فيما بينها، إذ مثلت المحطة الأولى من الرواية بالوضعية صفر للقصة وهي الحالة الطبيعية التي تجسدت بافتخار ومباهاة واعتزاز أوخيّد بالأبلق كسلالة نادرة يرتفع بها شأن الفارس فهي البديل عند أهل الصحراء عن الأحصنة، لطالما تغنت الشخصية بهذه الهدية الغالية المقدمة من زعيم الآهقار الذي لا يعتبره دابة مثل بقية الحيوانات ، لكن رغم كل تلك المواصفات إلاّ أننا نصطدم بخيبة أمل البطل وخيبة القارئ، بعدما حصل لهما في الحلبة، فكانت الفضيحة والعار وسخرية الجميع المهري الأصيل يصير راقصا بدل متسابق، فحين كان أوخيّد يعيش نشوة السباق دار الأبلق حول حلقة الرقص وكان ما كان، لقد أوهمنا السارد أن هذه هي أولى الرحلات لكنها لم تكن كذلك في الحقيقة، فقد تقدم زمن السرد على زمن الحكاية مما يزيد من متعة القراءة والتأويل، ويرى في ذلك نقاد الرواية أنه «عندما لا يتطابق نظام السرد مع نظام القصة فإننا نقول أن الراوي يولد مفارقات سردية وهذه المفارقات إما أن تكون استرجاعا لأحداث ماضية أو تكون استباقا لأحداث لاحقة»[20].

المحطة الثانية التي تستوقفنا ضمن أحداث الرواية هي مرحلة الطيش والشباب والشعور بالفحولة والعنفوان غذت تلك المغامرات الليلية في القبائل المجاورة المترامية على أطراف الصحراء الشاسعة، «وقع في غرام ناقة حسناء تملكها قبيلة تعودت أن تقضي الربيع في وادي المغرغر»[21]، وقد تجسد ذلك بالتسلل في الظلمات إلى خيم الحسان وصلت إلى درجة العبث اليومي، مما أدى إلى فضح البطل بعدما ضبط متلبسا بفعلته المخزية في عرف القبائل الصحراوية، فكان العقاب

المتمثل في داء الجرب الذي أصاب الأبلق وأفقده نضارته وجماله، فتتجسد هنا حالة الافتقار بعدما فقد أوخيّد كل أحلامه وكبريائه وكرامته ولبست الشخصية هنا ثوب الحزن والهم واليأس والندم، كل ذلك نتيجة الطيش، فتزداد لدى الشخصية مشاعر الحقد والكراهية والاحتقار نحو الأنثى فأوخيّد يعلق عليها كل مصائبه وهمومه «اعترف أن لا فضل لك في العدو هذه المرة ! الأنثى هي السبب! هي السبب دائما!»[22]، لتبدأ بذلك رحلته بالبحث عن الشفاء ، ولكن الأمل في الشفاء لا يكون إلا في عشبة " آسيار" هذا ما نصحه به الشيخ موسى بعدما همس له بذلك مضيفا أن آسيار حسب الأسطورة مرادف للجن والجنون، هل سيجن الأبلق؟ لكن لا مفر من ذلك، فلا ترياق يعيد للأبلق ألقه وبهاءه وجماله، فتبدأ رحلة أوخيّد بأبلقه للبحث عن هذا الدواء في سهول " قرعاتتيميون".

يقال إنّ آخر الدواء الكي، لا مفر من ركوب الرحلة غير آمنة المخاطر، وأي مخاطر وهل هناك ما هو أخطر من الجن، ولكن ليس باليد حيلة أخرى، نجح الكوني في تشويق القارئ وشدّ انتباهه وإشباع متعته، وهل هناك ما هو أعجب من عالم السحر والجن، إنّه عالم الكوني العجيب، لم يخيب القارئ هذه المرة، قطع أوخيّد بصاحبه تضاريس الصحراء الوعرة في مجازفة خطيرة، ينسلخ الجلد، وتنفصل الذراع عن مكانها، تتعدد الجراح، ترتفع درجة حرارة الجسم، يتصبب العرق وتنقطع الأنفاس ويعجز الجسم عن الحركة، يالها من تضحية من أجل من؟ الصاحب، أهو الوفاء حقا؟ أم تحقيقا للذات بعودة الأبلق لبهائه وجماله، وسر قوة أوخيّد؟، ينتصر الصديقان على العفاريت، لينقلنا الكوني لمحطة أخرى، إنها محطة الطهارة، لا بد من التكفير عن الذنوب، أم هي عقوبة الأبلق الأخرى، يقرر أوخيّد العودة إلى أعراف الأعراف، وفي العرف إخصاء الفحول للحفاظ عليها، يعزل المهري عن النوق فتعود له نضارته وجماله، أما أوخيّد فيختار بناء الأسرة مع محبوبته رغم رفض أبيه ودعوته عليه « لا بارك لك الله فيها»، يؤثرها على المشيخة، لكن هذه اللعنة ستجر له الفقر والعوز والكدر.

يرى أوخيّد العرافة تقف فوق رأسه وتطلب منه أن ينحر الأبلق فهذا ما تريده الإلهة " تانيت" إنه أعظم كابوس يجثم على قلبه يجفي النوم من عينيه ويكاد أن يذهب عقله، يشتد الجوع والألم ونكد الزوجة مما يضطره لرهن الأبلق مقابل توفير الطعام لزوجته وولده، لكنه يقع فريسة لخطة دنيئة نسجها له قريب زوجته، ومما زاد الأمر سوءا رفض الأبلق ففي كل مرة يعود إليه رافضا الاتفاق الذي عقده مع قريب زوجته، متحملا كل أنواع العذاب الجسدي والنفسي، مضربا عن الطعام، إنه رابط الصداقة والوفاء، الأبلق كذلك يريد أن يثبت له تلك المشاعر التي يكنها أوخيّد لصديقه، فبعد قلق وأرق وأخذ ورد وحوار مع نفسه ورحمة بصديقه الذي ذاق الألم

بأنواعه، هو كذلك لم يعد قادرا على فراق أبلقه يقرر أوخيد استعادة أبلقه ومقابل ماذا؟ مقابل زوجته وولده! ليخيب أفق القارئ مرة أخرى!!.

إلى المحطة الأخيرة ينقلنا الكوني، مرحلة مسح العار، لقد وقع أوخيّد من جديد في فلك المحظور لقد نزع آخر ثوب من ثياب العزة والكرامة، لقد باع زوجته! مقابل ماذا؟ حفنة من ذهب!،إنّه التبر الذي اختاره الكوني عنوانا لروايته، هذا ما شاع عنه بين القبائل، هو لم يطلب الذهب، بل لم يقبله، " دودو" هو الذي أصرّ عليه، لا سبيل له الآن سوى الانتقام، ظانا أنه سيمحو العار الذي اقترفته يداه، قام بقتل "دودو" لكنه يصلح الخطأ بالخطأ، فيصبح بعد ذلك طريدة في الصحراء ، حتى رسوم الأولين لم تنقذه، فلقي المصير نفسه بل أبشع من ذلك.

ج- المستوى الدلالي:

نلمس عددا من مؤشرات التيمة السردية متجلية في مفردات البناء الفني كالبيئة الصحراوية بوصفها الفضاء الروائي المفضل والدائم لإبراهيم الكوني، بالإضافة إلى الموروث الشعبي الذي تتناقله الشخصيات وتسعى للحفاظ عليه في شكل طقوس، ومعتقدات السحر والشعوذة، وتعلق الإنسان بالحيوان عامة وبالإبل خاصة.

يبدو أنّ لفظة " التبر" في الرواية التي تحمل اسمه، المهيمنة الأساسية والعنصر الرئيس في البنية السردية والبعد الدلالي لها في آن معا، ويعتبر العنوان أول ما يشد انتباه القارئ وهو يتفحص أي مؤلف، فالعنوان في الرواية يمثل تيمة النص الصغرى، وقطب النسيج السردي تربطه علاقات بنائية بالفصول وتسلسلها، وتطور الأحداث فيها، بينها قاسم مشترك وتيمة جزئية تطالعنا بها مجريات السرد، تدور حول محورية الموضوع وتيمته الأساسية الذي تتشكل منه البنية السردية وفق نمط متدرج ومتسلسل «فالعنوان مجموع العلاقات اللسانية التي يمكن أن ترسم على نص ما، من أجل تعيينه، ومن أجل أن تشير إلى المحتوى العام، وأيضا من أجل جذب القارئ»[23]، وهو يحقق تواصلا داخليا على مستوى النص والخطاب وخارجيا على مستوى التلقي، فكل من الطرفين يحيل على الآخر، فالعنوان يحيل على النص والنص يحيل على العنوان، لكن المتتبع لأحداث رواية التبر يجد أن تيمة التبر التي أختارها الروائي عنوانا ليست وحدها البؤرة المهيمنة على البنية السردية للرواية، فنلاحظ أن هناك تيمات أخرى تشاركها هذه الهيمنة على غرار المرأة وذلك الصراع بين عواطف الحقد والكراهية من جهة والعشق والجاذبية من جهة ثانية، بالإضافة إلى تيمة الصداقة مع الحيوان، لكن الكوني رغم ذلك اختار لفظة التبر عنوانا لروايته، رغم أنّ تيمة الذهب ليست تيمة جزئية ماثلة في جميع فصول الرواية، إلاّ أنّ العنوان يقوم بالوظيفة التعيينية والمرجعية فالعنونة « محاسبة أكيدة مفترضة بين الكاتب والقارئ لأن العنوان الروائي يقنع القارئ بمطابقة الكتاب لذوقه ولرغباته، يعني لسننه الخاصة، إنّه الضامن

لذلك وعلى أساس هذه الضمانة تتحقق القراءة»[24]، ويتحقق معها الانسجام بين العنوان والنص وينشأ التسلسل البنائي، ويقصد به نمو الأحداث وتنميتها.

والعنوان الذي بين أيدينا " التبر" مبتدأ خبره محذوف، وهذا الأخير لعله مفتاح رمزيته، يحيلنا "التبر" إلى القيمة المادية التي يمثلها الذهب فهو الأساس الذي تصنع به الأمم كينونتها المادية والحضارية، كذلك هو يرفع قيمة صاحبه داخل المجتمع، وهو الذي يجلب أهواء النساء ببريقه، تصنع به المجتمعات ترفها وتضمن به رزقها وجاهها، وذلك جعل منه غاية اللصوص ودافعهم الأول نحو الجريمة ولم يأت الكاتب على ذكر " الذهب" إلاّ في « لن نفعل شيئا الحرص والعسس، الخدم والحشم، اشترى كل شيء بماله، بذهبه»[25]، فتظهر القيمة المادية للذهب للمجتمع المقرف الذي يمثله " دودو" فقد سلب الذهب في غزوة لتأمين مهر ابنة عمه" أيور" والتي رفض أبوها زواجه منها، وقد جاء ذكر التبر في « أخرج من صندوق الحديد جرابا جلديا قديما، موسوما بإشارات السحرة، غرف منه بفنجان الشاي مرتين، فتلألأ التبر وأعمى العيون»[26]، يشير دودو في معرض حواره مع أوخيّد أنه لا يمكن استغناء الإنسان عن الذهب، بل هو سبب صراع الإنس والجن،وصراع الشيطان والإنسان، وصراع الإنسان والإنسان، « لا يحتاج الإنسان فقط وإنما الجن أيضا، صراع الإنس والجن بسببه، وصراع الإنسان والشيطان بسببه، وصراع الإنسان والإنسان بسببه »[27]، وهنا يمكن أن نتساءل عن ما أراد الكوني قوله على لسان " دودو" بأن سبب صراع الإنسان والشيطان هو الذهب ومدى صحة هذا ؟ فسبب صراع الإنسان والشيطان كما نعتقد هو تفضيل الله سبحانه وتعالى للإنسان على الشيطان ورفض الشيطان لذلك، أمّا ما يعتقده " أوخيّد" بالنسبة للتبر فهو ملعون ومشؤوم وسبب تعاسة الإنسان، وهو ما أراد الكوني إثباته من خلال نهاية حياة بطل الرواية بسبب التبر، فحياة أوخيّد انتهت بمجرد أن قبل بحفنة التبر، فقد لبسه العار وصار على ألسنة الناس بالشجب والاحتقار، وبذلك فقد قيمة الحياة التي ارتجاها، فلحظة ضعف قتلت فيه الكبرياء والمعاني الحقيقية للحياة، فقد كان يبحث عن القيمة في أسطورته فصار بلا قيمة وفي عرف الصحراء باطن الأرض خير له من سطحها، « الذهب يعمي الجميع، الذهب يفسد أفضل الخلق...الذهب سبب كل اللعنات»،[28] إنّ هذا الاعتقاد ترسخ في الصحراء مسكن الأساطير والخرافات، ملهمة الشعراء والرواة، فقداستها ستداس وتدنس إذا ما هي انفتحت على القيمة المادية للذهب وواقع "دودو" صورة لذلك، فحين طمع في اكتساب الذهب انسلخ عن العرف وفقد الأمان وصار مطمع كل طامع، وإلا فلما الحرس والعمال، افتقر إلى الشهامة فأوقع بأخيه " أوخيّد"، معتقدا أن الذهب سيعوضه عن زوجته وولده.

يبقى الكوني وفيا لتصويره المأساوي للمشهد الأخير من الرواية الذي طالما أنهى به قصصه محاولا ربطها بالأسطورة، حتى عندما أراد متتبعي أثره قتل أوخيّد، كانت الأسطورة ماثلة عندهم،

«تعرفون كيف انتقمت تانس من ضرتها الشريرة؟»[29]، يقتبس الكوني من أسطورة " تانسوأطلانتس" عندما قامت "تانس" بتمزيق ضرتها بين جملين يسيران في اتجاهين متعاكسين ربطت كل جهة من جسدها في جمل عقابا على تدبيرها المحاولة التي استهدفت حياتها، تلتجئ الرواية الجديدة إلى التضمين وهو « يعني إدراج قصة أو مجموعة من القصص داخل قصة أخرى. ونحن إذا تأملنا الخطاب الروائي الجديد فإنّنا سنجد أنّ الجزء الكبير منه ينبني على أساس التضمين حيث تم حشر أكبر قدر من القصص أو النصوص لها علاقة ما بالشخصية المحورية داخل القصة الإطارية»[30]، ويرى " شكلوفسكي" في هذا الصدد « أن نروي أقاصيص أو خرافات لتأجيل تنفيذ فعل ما »[31].

الخاتمة :

استطاع الكوني ببراعة وإبداع -أن يوظف في رواية " التبر " - كل ما هو غريب وعجائبي لتصوير الأنثى تصويرا متعددا يجمع ما لا يجمع في شخصية واحدة وفي آن واحد كالجاذبية والقسوة والكره والعشق والشوق وسبب البلاء، يتغنى بجمالها وأناقتها أحيانا ويجعلها تستوجب اللعنة مثلها مثل الشيطان مرة أخرى، جعل الكوني يفاجئ القارئ عندما تنازل البطل "أوخيد" عن زوجته للحفاظ على الحيوان الذي جعله في مرتبة الأخ في مشهد يتجاوز أفق توقع القارئ، ربما هو ما يشبه عالم الكوني العجيب والغرائبي الذي لا يعترف بالحقيقة ولا ينسجم مع الواقع.

مراجع البحث وإحالاته :

1- أرسطو، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تحقيق عبد الرحمان بدوي، القاهرة، 1959، ص 186.

2- رواية التبر،دار التنوير للطباعة والنشر، تاسيلي للنشر والإعلام، بيروت، لبنان،ط1992،3، ص 7.

3- المصدر نفسه، نفس الصفحة.

4- نفسه.

5- المصدر نفسه، ص 20.

6- أنظر: رواية التبر، ص 58.

7- المصدر نفسه، ص 13.

8- المصدر نفسه، ص 72.

9- المصدر نفسه، ص19.

10- المصدر نفسه ، ص 22.

11- المصدر نفسه، ص 46.

12- المصدر نفسه، ص 112.

13- المصدر نفسه، ص 67.

14- المصدر نفسه، ص 67.

15- المصدر نفسه، ص 15.

16- المصدر نفسه ، ص 13.

17- المصدر نفسه، ص 14.

18- المصدر نفسه، ص 20.

19- المصدر نفسه، ص 34.

20- حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط 3، 2000،المغرب، ص74.

21- الرواية، ص 13.

22- نفسه.

23- جمال بوطيب، العنوان في الرواية المغربية، " الرواية المغربية ، أسئلة الحداثة، جماعة من المؤلفين، مختبر السرديات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك" ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط 1، 1996، ص196.

24- المرجع نفسه، ص 196.

25- الرواية، ص 105.

26- المصدر نفسه، ص 124.

27- المصدر نفسه، ص 124.

28- المصدر نفسه، ص 144.

29- المصدر نفسه، 159.

30- عبد الرحمان بوعلي، الرواية العربية الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة المغرب، 2001، ص 50.

31- تزفيطان تودوروف ، الشعرية، تر : شكري المبخوت- رجاء سلامة، دار توبقال للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء، المعرب، ط 02، 1990، ص 70.

قائمة المصادروالمراجع :

1- إبراهيم الكوني: رواية التبر،دار التنوير للطباعة والنشر، تاسيلي للنشر والإعلام، بيروت، لبنان،ط1992،3.

2- أرسطو: الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تحقيق عبد الرحمان بدوي، القاهرة، 1959.

3- جمال بوطيب: العنوان في الرواية المغربية، " الرواية المغربية ، أسئلة الحداثة"، جماعة من المؤلفين، مختبر السرديات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك" ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط 1، 1996.

4- حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 3، 2000.

5- عبد الرحمان بوعلي: الرواية العربية الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة المغرب، 2001.

6- تزفيطان تودوروف : الشعرية، تر : شكري المبخوت- رجاء سلامة، دار توبقال للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء، المعرب، ط 02، 1990.